مكـارم الأخـلاق

□ مكارم الأخلاق □

أخي، لقد امتدح الله نبيه ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم : ٤] .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »(١) .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٢) .

والتزكية ربع الرسالة المحمدية ، قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ... ﴾ الآية [البقرة : ١٢٩] .

ووصف الله بالفلاح مَنْ زكّى نفسه فقال : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ [الشمس : ٩] .

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها»(٣).

وقال ﷺ : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها »(٤).

قال المناوي :

« إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها » وهي الأخلاق الشرعية ، والخصال الدينية ، لا الأمور الدنيوية ، فإن العلو فيها نزول ، ويبغض حقيرها ورديئها ، فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبه ، ومَنْ تحلّى بالأوصاف الرديئة

---

(١) صحيح : رواه ابن سعد ، والبخاري في الأدب ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٤٥ .

(٢) صحيح :

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٦ .

(٤) صحيح : رواه الحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٨٥ .

كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال، فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك[١] .

١ - كظم الغيظ

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أحب الناس إلى الله أنفعهم ، وأحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه ديْنا ، أو تطرد عنه جوعًا ، ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحبّ إليَّ من أن أعتكف في المسجد شهرًا ، ومن كفّ غضبه، ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا، ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة ، ومَنْ مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له ، أثبت الله تعالى قدمه يوم تزلّ الأقدام ، وإن سوء الخلق ليفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل »[٢] .

قال المناوي :

« مَنْ كفَّ غضبه ستر الله عورته »[٣] من منع نفسه عند هيجان الغضب عن أذى معصوم ، فعاجل ثوابه أن يستر عورته في الدنيا ، ومَنْ ستره فيها لا يهتكه في الآخرة ولا يعذبه بنارها ؛ لأن من وراء الستر الرضا ، والنار إنما تلظت لغضبه ، فإذا كف العبد غضبه ستر الله عورته ، وأما ما صح أن موسى اغتسل عريانًا فوضع ثوبه على حجر في خلوة ففرّ به حجر فعدا وراءه ، يقول : ثوبي يا حجر ، ويضربه بعصاه ، حتى أثرت فيه ، فهو ضرب تأديب لا انتقام[٤] اهـ.

---

(١) فيض القدير (٢ / ٢٩٥) .

(٢) حسن : رواه ابن أبي الدنيا في : قضاء الحوائج . والطبراني في الكبير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٧٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩٠٣ .

(٣) عند ابن أبي الدنيا في ذم الغضب ، قال الزين العراقي : إسناده حسن . انظر فيض القدير (٦ / ٢١٧) .

(٤) فيض القدير للمناوي (٦ / ٢١٧) .

وكظم الغيظ هو الإمساك عنه ، والكف عن إمضائه ، من كظمت القربة إذا شددت رأسها « ومن كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه رضي يوم القيامة » .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « من كظم غيظًا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة »(١) .

وأي رضا ، وأي رجاء فوق زواجه من الحور العينَ من يشاء منهن .

قال ﷺ : « من كتم غيظا ، وهو قادر على أن يُنْفِذَهُ ، دعاه الله على رءوس الخلائق حتى يُخيره من الحور العين ، يزوجه منها ما شاء »(٢) .

خرج زين العابدين علي بن الحسين يومًا من المسجد ، فسبّه رجل ، فانتدب الناس إليه فقال : دعوه . ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ، فألقى زين العابدين إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

ونال منه رجل يومًا ، فجعل يتغافل عنه – يريه أنه لم يسمعه – فقال له الرجل : إياك أعني ! فقال له علّي : وعنك أغضي !

قال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلي بن الحسين عليه ماءً ليتوضأ ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه ، فرفع رأسه إليها ، فقالت الجارية : إن الله يقول: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ فقال: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿**والعافين عن الناس**﴾ فقال : عفا الله عنك ، فقالت : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال :

---

(١) صحيح .

(٢) حسن : رواه أصحاب السنن الأربعة ، وأحمد في مسنده وأبو نعيم في الحلية ،وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٣٩٤ .

أنت حرة لوجه الله تعالى .

وروى ابن أبي الدنيا أن غلامًا سقط من سفود ، وهو يشوي شيئًا في التنور ، على رأس صبي لعلي بن الحسين فقتله ، فنهض علي بن الحسين مسرعًا ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع في جهاز ابنه[١] .

٢ - الرفق والرحمة

لتكن الرحمة سجيتك والرفق خلقك ، أما تحب أن يرحمك الله .

قال ﷺ : « ارحم من في الأرض ، يرحمك مَنْ في السماء »[٢] .

وقال ﷺ : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون »[٣] .

وقال ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٤] .

قال المناوي :

« ارحم من في الأرض » يشمل جميع أصناف الخلائق ، فيرحم البر والفاجر ، والناطق والمبهم ، والوحش والطير .

---

(١) مجلة الرائد العدد رقم ١٣٧ ص ٥٩ .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن جرير ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرك عن ابن مسعود ، والطيالسي ، والطبراني في الأوسط ، والطبراني في الصغير ، وأبو نعيم في الحلية ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٠٩ وصححه الحاكم ، وأقره الذهبي ، وصححه السيوطي ، وقال ابن حجر : رواته ثقات .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والبخاري في الأدب والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩١٠ .
قال الزين العراقي : إسناده جيد ، وكذا قال المنذري ، ورمز السيوطي لصحته .

(٤) حسن : رواه الطبراني في المعجم الكبير عن جرير ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٧٧ .

قال الحراني: والرحمة تحلة ما يوافي المرحوم في ظاهره وباطنه، أدناه كشف الضر وكشف الأذى، وأعلاه الاختصاص. وفيه ندب إلى العطف على جميع أنواع الحيوان، وأهمها وأشرفها الآدمي المسلم، والكافر المعصوم، فيعطف عليهم بالمواساة والمعونة والمواصلة ، فيوافق عموم رحمة الله للكلّ بالإرفاق وإدرار الأرزاق .

قال وهب : من يَرحم يُرحَمْ ، ومن يصمت يَسْلَم ، ومن يجهل يُغْلَب ، ومَنْ يعجل يخطيء ، ومَنْ يحرص على الشر لا يسلم ، ومن يكره الشر يعصم .

وقال عيسى عليه السلام : لا تنظروا في عيوب الناس كأنكم أرباب ، انظروا فيها كأنكم عبيد، إنما الناس مبتلًى ومعافًى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية .

وهنا دقيقة : وهي أن العارف المرصفي ، قال : يجب على الفقير إذا تخلّق بالرحمة على العالم ألّا يتعدى بالرحمة موطنها ، فيطلب أن يكون العالم كله سعيدًا ، فإنه تعالى يقول : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأنَّ جهنم من الجنّة والناس أجمعين** ﴾ [هود : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ **ما يبدل القول لديّ** ﴾ [ق : ٢٩] .

ولقد ندب الشارع إليها في كل شيء حتى في قتال الكفار(١)، والذبح، وإقامة الحجج ، وغير ذلك(٢) .

قال ﷺ : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٣) . وزاد أحمد والترمذي والحاكم : « والرحم

---

(١) من رحمة نسائهم وأطفالهم ، وإلا فالله تعالى يقول : ﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : ٧٣] ، [التحريم : ٩] .

(٢) فيض القدير (١ / ٤٧٣ - ٤٧٤) .

(٣) صحيح: رواه أحمد في مسنده، وأبو داود والترمذي والحاكم عن ابن عمرو، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٥١٦ .

شجنة من الرحمن فمن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » .

قال المناوي :

الراحمون لمن في الأرض من آدمي ، وحيوان لم يؤمر بقتله ، بالشفقة والإحسان والمواساة والشفاعة وكف الظلم ، ثم بالتوجع والتوجه إلى الله ، والالتجاء إليه والدعاء بإصلاح الحال ، ولكل مقام مقال .

قال العارف البوني : فإن كان لك شوق إلى الرحمة من الله ، فكن رحيمًا لنفسك ولغيرك ، ولا تستبد بخيرك ، فارحم الجاهل بعلمك ، والذليل بجاهك ، والفقير بمالك ، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك ، والعصاة بدعوتك ، والبهائم بعطفك ورفع غضبك ، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه ، فكل ما يفعله من خير دقّ أوجل فهو صادر عن صفة الرحمة .

قد أمر الراحم أن يبدأ بنفسه فيرحمها ، فمنْ رحمها سلك بها سبيل هداها ، وحال بينها وبين هواها ، فإنه رحم أقرب جار إليه ، ورحم صورة خلقها الله على صورته ، فجمع بين الحُسْنَيَيْن ، ولذلك أمر الداعي أن يبدأ بنفسه في الدعاء .

قال ابن عساكر :

بادر إلى الخير ياذا اللبِّ مغتنمًا ... ولا تكن من قليل الخير محتشمًا
واشكر لمولاك ما أولاك من نِعَم ... فالشكر يستوجب الإفضال والكرمَا
وارحم بقلبك خلقَ الله وارعهمُ ... فإنما يرحم الرحمن مَنْ رحمَا

تنبيه :

قال العلامة الجويني في ينابيع العلوم :

حكمة إتيانه بالراحمين جمع راحم دون الرحماء جمع رحيم ، وإن كان غالب ما ورد من الرحمة استعمال الرحيم لا الراحم ؛ لأن الرحيم صفة مبالغة ، فلو عبّر بجمعها اقتضاء الاقتصار عليه ، فعبر بجمع راحم ؛ إشارة إلى أن العباد منهم مَنْ قلّتْ رحمته ، فيصحّ وصفه بالراحم لا الرحيم ، فيدخل في ذلك ، ثم أورد على نفسه حديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : إن له جوابًا

حقه أن يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب ، وهو : أن لفظ الجلالة دال على العظمة والكبرياء ، ولفظ الرحمن دالّ على العفو بالاستقراء ، وحيث ورد لفظ الجلالة يكون الكلام مسوقًا بالتعظيم ، فلما ذكر لفظ الجلالة في قوله : « إنما يرحم الله » لم يناسب معها غير ذكر من كثرت رحمته وعظمت ؛ ليكون الكلام جاريا على نسق العظمة ، ولما كان الرحمن يدل على المبالغة في العفو ، ذكر كل ذي رحمة وإنْ قلّت[1] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »[2] .

وقال ﷺ : « من لا يَرحَم لا يُرحم »[3] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يُرحم ، ومَنْ لا يَغْفِر لا يُغفرُ له »[4] .

وقال ﷺ : « من لا يرحم لا يرحم ، ومن لا يغفر لا يغفر له ، ومَنْ لا يتُبْ لا يُتبْ عليه »[5] .

قال المناوي :

الجزاء من جنس العمل ، فمن رحم خلق الله رحمه الله . قال الزين العراقي : وجاء في رواية تقييده بالمسلمين ، فهل يحمل إطلاق الناس على التقييد أو الأمر أعم ؟ ورحمة كل أحد بحسب ما أذن فيه الشارع ، فإن كانوا أهَل ذمة فيحفظ لهم ذمتهم ، أو حربيين دخلوا بإذن فيحفظ لهم ذلك ، لا أن المراد بالرحمة مودتهم وموالاتهم .

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٢ - ٤٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم وأحمد والترمذي عن جرير ، وأحمد والترمذي عن أبي سعيد .

(٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي ، وأبو داود عن أبي هريرة ، والبخاري ومسلم عن جرير .

(٤) رواه أحمد عن جرير .

(٥) رواه الطبراني في الكبير عن جرير .

قال ﷺ : « من لا يرحم من في الأرض لا يرحمه مَنْ في السماء »[١] .

من تمام الرحمة : إيثار الأطفال بذلك لضعفهم ، وتوقير الكبير لسنه[٢].

كان الزمخشري في طفولته ، يحبس طائرًا في بيته ، فأتى هذا الطائر وقطع الحبل فنشبت رجله ، فانقطعت مع الحبل ، وذهب الطائر برجل واحدة ، قالت أم الزمخشري له : قطع الله رجلك ، كما قطعت رجل هذا الطائر ، فذهب ، فوقع في الثلج في طريقه إلى مكة ، فكسرت من فخذه ، وأصبح على رجل واحدة[٣] .

نقل ابن خلّكان أن الكندي قال : كنت قاعدا على باب ابن الخشاب ، وقد خرج من عنده الزمخشري ، وهو يمشي في جاون خشب ؛ سقطت رجله من الثلج[٤] .

وقد مرّت بك قصة محمد بن عبد الملك الزّيات .

وقال ﷺ : « من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة »[٥].

قال المناوي :

وخص العصفور بالذكر ، لكونه أصغر مأكول ينذبح ، وإذا استلزمت رحمته رحمة الله مع حقارته وهوانه على الناس ، فرحمة ما فوقه سيما الآدمي أولى .

---

(١) إسناده جيد : قال المناوي : رواه الطبراني في الكبير من طريق جرير بن عبد الله ، ورمز المؤلف – السيوطي – لحسنه ، وكان حقه الرمز لصحته ؛ فقد قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقال المنذري : إسناده جيد قوي .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٣٩ – ٢٤٠) .

(٣) شريط : كتب في الساحة الإسلامية . للشيخ عائض القرني .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٢ / ٣٧) .

(٥) حسن : رواه البخاري في الأدب ، والطبراني في الكبير ، والضياء عن أبي أمامة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٣٧ .

وأفاد معاملة الذبيحة حال الذبح بالشفقة والرحمة وإحسان الذبحة ، كما ورد مصرَّحًا به في عدة أخبار[١] .

وقال ﷺ : «من فرّق بين والدة وولدها؛ فرّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[٢].

فالتفريق بين الأمة وولدها بنحو البيع أو الهبة حرام شديد التحريم عند الشافعي وأبي حنيفة ومالك ، بشرط كونه قبل التمييز عند الشافعي ، وقبل البلوغ عند أبي حنيفة وكذا مالك في رواية ابن غانم عنه ، وفي رواية عنه : يجوز قبل أن يثغر ، وسواء رضيت الأم أم لا عند الشافعي ، وقال مالك : يجوز برضاها ، وذهب بعض الأئمة إلى منع التفريق بينهما مطلقًا ، وقال كما قال ابن العربي : إنه ظاهر الحديث ؛ لأنه لم يفرّق بين الوالدة وولدها بلفظ « بين » ، وفرّق في جوابه حيث كرر « بَيْن » في الثاني ؛ ليدل على عظم هذا الأمر ، وأنه لا يجوز التفريق بينهما في اللفظ بالبيع ، فكيف التفريق بين ذواتيهما ؟ ذكره جمع[٣] .

وعن أنس – رضي الله عنه – أن امرأة دخلت على عائشة ، ومعها صبيّان لها ، فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل صبي تمرة ، فأكلا تمرتيهما ، ثم نظرا إلى أمهما ، فأخذت التمرة فشقتها نصفين ، فأعطت ذَا نصفًا وذَا نصفًا . فدخل النبي ﷺ، فأخبرته عائشة فقال: «ما أعجبك مِنْ ذلك؟ فإن الله قد رحمها برحمة صبيّيها»[٤].

اسمحْ لِيُسْمَح لك :

قال ﷺ : « اسمحوا يُسمح لكم »[٥] .

---

(١) فيض القدير (٦ / ١٣٥) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك عن أبي أيوب ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٨٨ . وضعفه ابن حجر والسخاوي .

(٣) فيض القدير (٦ / ٧١٧) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، وأخرجه أحمد .

(٥) صحيح : رواه عبد الرزاق في الجامع مرسلا ، ورواه ابن عساكر وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٩٩٢ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ١٤٥٦ .

وقال ﷺ : « اسمح يُسمح لك »[١] .

قال المناوي :

« يُسمح لك » بالبناء للمفعول ، والفاعل الله ؛ أي عامل الخلق الذين هم عيال الله وعبيده بالمسامحة ، يعاملك سيدهم بمثله في الدنيا والآخرة[٢] .

الرفق في الأمور كالمسك في العطور :

قال ﷺ : « من يُحَرم الرفق يُحْرَم الخير كله »[٣] .

قال المناوي :

فيه فضل الرفق وشرفه، ومن ثم قيل: الرفق في الأمور كالمسك في العطور.

وقال ﷺ : « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فيها ، فشرب منها ، ثم خرج ، فإذا هو بكلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي ، فنزل البئر ، فملأ خُفَّه ماءً ، ثم أمسك بفيه ، ثم رَقَيَ ، فسقى الكلب ، فشكر اللهُ ، فغفر له ، في كلِّ ذاتِ كبدٍ رطبة أجر »[٤] .

وقال ﷺ : « بينما كلب يُطيف[٥] برَكيّة[٦] ، كاد يقتله العطش ، إذ رأته بغيّ من بغايا بني إسرائيل ، فنزعت مُوقها[٧] ، فاستقت له به ، فغفر لها به »[٨] .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) فيض القدير للمناوي : (١/٥١٢) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجة عن جرير .

(٤) رواه البخاري ، ومسلم ، ومالك ، وأحمد ، وأبو داود عن أبي هريرة .

(٥) يطيف : يدور .

(٦) ركية : بئر .

(٧) موقها : خُفّها الذي تلبسه في قدميها .

(٨) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

وقال ﷺ : « غفر لامرأة مومسة ، مرّت بكلب على رأس ركي يلهث ، كاد يقتله العطش ، فنزعت خُفّها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك »(١) .

مَنْ ضارّ ضارّ الله به :

قال ﷺ : « من ضارّ ضارّ الله به ، ومن شاقّ شاقّ الله عليه »(٢) .

قال المناوي :

« مَنْ ضارّ » أي أوصل ضررًا إلى مسلم بغير حق .

« ضارّ الله به » أي أوقع به الضرر البالغ ، وشدَّد عليه عقابه في العقبى .

« ومن شاقّ » أي أوصل مشقة إلى أحد بمحاربة أو غيرها .

« شق الله عليه » : أي أدخل عليه ما يشق عليه ، مجازاة له على فعله بمثله ، وأطلق ذلك ؛ ليشمل المشقة على نفسه وعلى الغير بأن يكلف نفسه أو غيره بما هو فوق طاقته(٣) .

٣ - التواضع

هي النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها .

وقال بعض الحكماء : وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد عند الحكماء من الكِبْر مع الأدب والسخاء ، فأنبل بحسنة غطّت على سيئتين ، وأقبح بسيئة غطت على حسنتين .

كيف يزهو مَنْ رجيعه　　أبد الدهر ضجيعه

والتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة، والخشوع يقال باعتبار

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة .

(٢) حسن : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي وابن ماجة عن أبي صرمة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٢٤٨ .

(٣) فيض القدير (٦ / ١٧٣) .

أفعال الجوارح ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ [القلم : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾[(١)] [طه : ١٠٨] .

قال ابن السماك للرشيد : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك .

وقال جعفر بن محمد : من أنصف الناس من نفسه قُضي به حكمًا لغيره .

وقال بكر بن عبد الله المزني : ما رأيتُ امرأً إلا رأيت له الفضل عليّ ، لأني من نفسي على يقين ، وأنا من الناس على شك[(٢)] .

قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله »[(٣)] .

قال المناوي :

«من تواضع» لأجل عظمة «الله» تواضعًا حقيقيًا ناشئًا عن شهود عظمه الحق. فالتواضع للناس مع اعتقاد عظمة في النفس واقتدار ، ليس بتواضع حقيقي ، بل هو بالتكبر أشبه. «رفعه الله» لأن من أذل نفسه لله فيجازيه الله بأحسن ما عمل.

قال ابن الحاج : فمن أراد الرفعة فليتواضع لله ، فإن الرفعة لا تقع إلا بقدر النزول ، ألا ترى أن الماء لما نزل إلى أسفل الشجرة صعد إلى أعلاها ، كأن سائلا سأله : ما صعد بك هاهنا وأنت قد نزلت تحت أصلها ، فقال لسان حاله : « من تواضع لله ، رفعه الله »[(٤)] .

وقال ﷺ : « اعلم أنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفع الله لك بها درجة ، وحطّ

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ، تحقيق د . أبي اليزيد العجمي ص٢٩٩ – ٣٠٢ طبع الوفاء ودار الصحوة .

(٢) نزهة المجالس، وأنس المُجالِس وشحذ الذاهن والهاجس، لابن عبد البر ، ص ٤٤٤– ٤٤٥ طبع مكتبة ابن تيمية .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٠٣٨ . وعند مسلم وأحمد : « ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٠٨) .

عنك بها خطيئة »[١] .

من تواضع لله رفعه ، والجزاء من جنس العمل .

وأي رفعة فوق القرب من الله ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ [العلق : ١٩] .

إلا رفع الله لك بها درجة ، أي منزلة عالية المقدار . فأكثر من الصلاة ترفع درجاتك ، وتمحى عنك سيئاتك .

قال الجنيد : ليس من طلب الله ببذل المجهود كمن طلبه من طريق الجود ، ولهذا قال المصطفى ﷺ لمن سأله أن يشفع له وأن يكون معه في الجنة « أَعِنِّي على نفسك بكثرة السجود »[٢] .

وقال ﷺ : « ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمة بيد مَلَك ، فإذا تواضع قيل للملك : ارفع حكمته ، وإذا تكبّر قيل للملك : دع حكمته »[٣] .

قال المناوي :

«إلا في رأسه حكمة»: ما يجعل تحت حنك الدابة ، يمنعها المخالفة كاللجام ، والحنك متصل بالرأس . « بيد مَلَك » موكل به ، فإذا تواضع للحق والخلق « قيل للملك » مِنْ قِبَلِ الله تعالى : « ارفع حكمته » أي قدره ومنزلته ، يقال : فلان عالي الحكمة ، فرفعها كناية عن الإعذار . « فإذا تكبر قيل للملك : دع حكمته » كناية عن إذلاله ، فإن صفة الذليل تنكيس رأسه .

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والترمذي ، والحاكم في المستدرك ، والبخاري في الأدب عن عبد الرحمن بن عوف ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٠٨٠ .

(٢) فيض القدير للمناوي (٢ / ٨) .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ، والبزار عن أبي هريرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٥٥١ ، وفي السلسلة الصحيحة رقم ٥٣٥ .

فثمرة التكبر في الدنيا الذِّلَّة بين عباد الله ، وفي الآخرة طينة الخبال ، وهي عصارة أهل النار[1] .

عن ابن مسعود- رضي الله عنه-:من تطاول تعظيمًا خفضه الله عز وجل، ومن تواضع لله تخشعًا رفعه الله[2] .

٤ - الحياء

أول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان ، أما الوقاحة مذمومة بكل لسان ، إذ هي انسلاخ من الإنسانية ، واشتقاقها من حافر وقاح أي صلب .

يا ليت لي من جلد وجهك رقعة   فأقدّ منها حافرًا للأشهب

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد   إلا تكمل فيه الشر واجتمعا

وعلى الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصور أجلّ مَنْ في نفسه حتى كأنه يراه ، فالإنسان يستحي ممن يكبر في نفسه .

والذين يستحي منهم الإنسان ثلاثة : البشر ، وهم أكثر من يستحي منه ، ثم نفسه ، ثم الله عز وجل .

ومن استحيا من الناس ولم يستحي من نفسه ، فنفسه عنده أخس من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحي من الله فلعدم معرفته بالله عز وجل ، فإن الإنسان يستحي ممن يعظمه ، ويعلم أنه يراه أو يسمع نجواه فيبكته ، ومَنْ لا يعرف الله فكيف يستعظمه »[3] .

قال ابن القيم: وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء . وقلة الحياء من موت القلب والروح ، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم .

---

(١) فيض القدير (٥ / ٤٦٦ - ٤٦٧) .

(٢) الزهد لابن حنبل (٢ / ١٠٥) .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

قال يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعًا استحيا الله منه وهو مذنب ، وهذا الكلام يحتاج إلى شرح،ومعناه : أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته . فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستحٍ خجل . فإنه إذا واقع ذنبا استحيا الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحالة لكرامته عليه ، فيستحي أن يرى مِنْ وليه ومن يكرم عليه ما يشينه عنده . وفي الشاهد شاهد بذلك . فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به ، وأحبهم إليه - من صاحب ، أو ولد ، أو مَنْ يحبه - وهو يخونه ؛ فإنه يلحقه من ذلك الإطلاع عليه حياء عجيب ، حتى كأنه هو الجاني وهذا غاية الكرم .

وأما حياء الرب تعالى من عبده : فذاك نوع آخر . لا تدركه الأفهام ، ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حيي كريمٌ يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام .

وكان يحيى بن معاذ يقول : سبحان من يذنب عبده ويستحيي هو . وفي أثر : من استحيا من الله استحيا الله منه »[1] والجزاء من جنس العمل .

وكقوله ﷺ في شأن النفر الثلاثة الذين وقفوا على مجلسه : « أما أحدهم فأقبل فأقبل الله عليه . وأمَّا الآخر فاستحيا فاستحيا الله عز وجل منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عز وجل عنه » .

« استحيوا من الله تعالى حق الحياء ، مَنِ استحْيا الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوىٓ، وليذكر الموت والبِلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[2] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٩ - ٢٦١) .

(٢) حسن: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٩٤٨ .

وقال ﷺ : « إن لكل دين خلقًا ، وإن خلق الإسلام الحياء »[١] .

وقال ﷺ : « ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه ، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه »[٢] .

وقال ﷺ: «الحياء والإيمان قرنا جميعًا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[٣].

وقال ﷺ : « الحياء لا يأتي إلا بخير »[٤] .

وقال ﷺ : « الحياء خير كله »[٥] .

قال بعض الحكماء : من كسا الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه .

قال المناوي :

بهذا الحياء حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت في الدنيا شقي في الآخرة ، وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تناسب فكل يستدعي الآخر ، ويطلبه حثيثًا ، ومن استحيا من الله عند معصيته استحيا من عقوبته عند لقائه ، ومن لم يستحي من معصيته لم يستحي من عقوبته[٦] .

والجزاء من جنس العمل . ومن استحيا من الله استحيا منه الصالحون .

٥ - العفة

هي أس الفضائل من القناعة والزهد وغنى النفس والسخاء ، وعدمها يعفي

---

(١) حسن: رواه ابن ماجة عن أنس وابن عباس، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢١٤٥.

(٢) صحيح : رواه أحمد والبخاري في الأدب ، والترمذي ، وابن ماجة عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٣١ .

(٣) صحيح : رواه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عمر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٩٥ .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم ، وأبو داود عن عمران بن حصين .

(٦) فيض القدير للمناوي (٦ / ٤٢٧ - ٤٢٩) .

على جميع المحاسن ويعري من لبوس المحامد ، ومَنْ اتسم بسمة العفّة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل ، وسهّلتْ له سبيل الوصول إلى المحاسن .

ولا يكون الإنسان تام العفّة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر ، وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع ، دون الشهوة والهوى .

واعلم أنه لا يكون المتعفف عفيفًا إلا بشرائط ، وهي ألا يكون تعففه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه ، أو لأنه لا يوافقه ، أو لجمود شهوته ، أو لاستشعار خوف من عاقبته ، أو لأنه ممنوع من تناوله ، أو لأنه غير عارف به لقصوره ، فإن ذلك كله ليس بعفّة بل هو إمّا اصطياد ، أو تطبب ، أو مرض ، أو خرم ، أو عجز ، أو جهل . وترك ضبط النفس عن الشهوة أذم من تركها عند الغضب ، ولهذا قيل : عبد الشهوة أذل من عبد الرقّ[1] .

قال ﷺ: «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم، وعفّوا عن النساء تعف نساؤكم»[2] .

قال المناوي :

« بروا آباءكم وأمهاتكم » وكأنه اكتفى به عنه من قبيل ﴿ **سرابيل تقيكم**

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ، والطبراني في الكبير ، والخطيب في تاريخ بغداد . والطبراني في الأوسط ، والحديث مروي عن ابن عمر وأنس وأبي هريرة وجابر وعائشة . قال المنذري : إسناده حسن ، وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني أحمد غير منسوب ، والظاهر أنه من المتكثرين من شيوخه فلذلك لم ينسبه . اهـ . وبالغ ابن الجوزي فجعله موضوعًا وحول الحديث كلام كثير ، وأمثل طرقه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر . قال ابن عراق في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة : رأيت بخط الحافظ ابن حجر أن رواية الطبراني بسند حسن .

الحر ﴾ وأراد بالآباء ما يشمل الأمهات تغليبًا كالأبوين ، فإنكم إن فعلتم ذلك تبرُّكم أبناؤكم ، وكما تدين تدان . وعفّوا عن نساء الناس فلا تتعرضوا لمزاناتهم ، فإنكم إن التزمتم ذلك تعف نساؤكم عن الرجال الأجانب ، لما ذكر .

قال الراغب : دخلت امرأة يزيد بن معاوية وهو يغتسل فقالت : ما هذا ؟ قال : جلدت عميرة ، ثم دخل وهي تغتسل ، فقال : ما هذا ؟ قالت : جلدني زوج عميرة[1] .

عفّوا تعفّ نساؤكم في المحرمِ   وتجنبوا ما لا يليق بمسلمِ
ياهاتكًا سبلَ الرجال وقاطعًا   سبل المودة عشت غير مكرمِ
لو كنت حرّا من سلالة ماجدٍ   ما كنت هتّاكًا لحرمةِ مسلمِ
مَنْ يزنِ يُزن به ولو بجداره   إن كنت يا هذا لبيبًا فافهمِ
مَنْ يزنِ في بيت بألفيْ درهم   في بيته يزنى بغير الدرهمِ

قيل لأبي بكر المسْكي : إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه ؟ فقال : والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك ، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب ، وراودتني عن نفسي فتحيرت في أمري فضاقت بي الحيل ، فقلت لها : إن لي حاجة إلى الطهارة . فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى بيت الراحة ففعلت ، فلما دخلت بيت الراحة أخذت العذرة وألقيتها على جميع جسمي ، ثم رجعت إليها وأنا على تلك الحالة فلما رأتني دَهَشَت ، ثم أمرت بإخراجي ، فمضيت واغتسلت ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلًا يقول لي : فعلت ما لم يفعله أحدٌ غيرك ، لأطيبن ريحك في الدنيا والآخرة . فأصبحت والمسك يفوح مني ، واستمر ذلك إلى الآن[2] .

---

(١) فيض القدير (٣ / ٢٠٠) .
(٢) المواعظ والمجالس لابن الجوزي ص ٢٢٤ ، طبع دار الصحابة للتراث .

٦ - محبة المؤمنين

عظم الله تعالى المنّة بإيقاع المحبة بين أهل الملة فقال تعالى : ﴿ **وألَّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنَّ الله ألف بينهم** ﴾ [الأنفال : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ سيجعل لهم الرحمن ودًّا** ﴾ [مريم : ٩٦] .

أخي ، كلك لأخيك إلا ما حرّمه الله ورسوله ، ولا تكتمل الصحبة حتى تقول لأخيك : يا أنا إلّا ما حرمه الله ورسوله .

وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا ، وإذا تواصلوا تعاونوا ، وإذا تعاونوا عملوا ، وإذا عملوا عمروا ، وإذا عمروا عمروا[١] .

قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الغائب لغائب ، قال له الملك : ولك بمثل ذلك »[٢] .

وقال ﷺ : « من دعا لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله »[٣] .

قال المناوي :

ظاهره يشمل الغائب عن البلد وهو المسافر ، وعن المجلس قال له الملك الموكل بنحو ذلك « ولك مثل ذلك » أي أدعو الله أن يجعل لك بمثل ما دعوت به لأخيك[٤] .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « زار رجل أخًا له في قرية فبعث الله له مَلَكا على مدرجته ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخًا لي في هذه القرية . فقال : هل له عليك من نعمة

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٦٤ .

(٢) صحيح : رواه ابن عدي في الكامل عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٤٩ .

(٣) رواه مسلم ، والنسائي عن أبي الدرداء .

(٤) فيض القدير للمناوي (١ / ٣٤٣) .

تُرُبُّها ؟ قال : لا ، إلّا أني أحبه في الله ، قال : فإني رسول الله إليك أن الله أحبك كما أحببته »(١) .

قال الذهبي :

وهو من أحاديث الصفات التي تمر كما جاءت ، وشاهده في القرآن وفي الحديث كثير ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلًا**﴾ [النساء: ١٢٥] لما أحبوا المؤمنين أحبهم الله .

لما أحبوا ربهم أحبهم الله ، والجزاء من جنس العمل .

٧ - الصبر

إن الله سبحانه وتعالى جعل الصبر جوادًا لا يكبو ، وصارمًا لا ينبو ، وجندًا لا يهزم ، وحصنًا حصينًا لا يثلم .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول : إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة »(٢) .

وروى البخاري وأحمد عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه - يريد عينيه - ثم صبر عوضته منهما الجنة » .

وعن رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : إذا سلبت من عبدي كريمتيه ، وهو بهما ضنين ، لم أرض له بهما ثوابًا دون الجنة ، إذا حمدني عليهما »(٣) .

قال المناوي :

إن السرور يكنى عنه بقرة العين لما يشاهد المحبوب ، ويكنى عن الحزن بسخونها للمفارقة عنه .

---

(١) رواه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في الأدب عن أبي هريرة .

(٢) صحيح : رواه الترمذي عن أنس ، وابن حبان عن ابن عباس ، وأحمد عن أبي أمامة .

(٣) حسن : رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية عن العرباض ، وابن حبان في صحيحه ، والبزار وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٠١٠ .

« عوضته منهما الجنة » أي دخولها ؛ لأن فاقدهما حبيس ، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة ، فياله من عوض ما أعظمه والالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنة باقٍ ببقائها .

قال الطيبي : ثم للتراخي في الرتبة ؛ لأن ابتلاء اللهِ العبدَ نعمة ، وصبره عليها مقتضٍ لتضاعف تلك النعمة .

وقال أيضًا : أحب أعضاء الإنسان إليه يحصل له بفقدهما من الأسف على فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به . وقيل : إن أول من يعطيهم الله أجورهم الذين ذهبت أبصارهم ، ينادى يوم القيامة بالمكفوفين فيقال لهم : أنتم أحرى من ينظر إلينا ، ثم يستحي الله تعالى منهم ويقول لهم : اذهبوا إلى ذات اليمين ويعقد لهم راية ، وتجعل بيد شعيب عليه السلام ، فيصير إمامهم ومعهم من ملائكة النور ما لا يحصي عددهم إلا الله ، يزفونهم كما تزف العروس ، فيمر بهم على الصراط كالبرق الخاطف ، هذا فيمن صفته الصبر والحلم كابن عباس ، ومن ضاهاه من الأمة .

لما أصيب ابن عباس ببصره أنشد :

إنْ يذهبِ اللهُ من عينيّ نورهما ... ففي لساني وقلبي للهدى نورُ
عقلي ذكّي وقولي غير ذي خطل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[(١)]

٨ - ترك السؤال

قال ﷺ: «مَنْ يتقبل لي بواحدة، أتقبل له بالجنة لا يسأل الناس شيئًا»[(٢)].
وقال ﷺ : « من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة »[(٣)] .

---

(١) فيض القدير للمناوي (٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩) .

(٢) صحيح : رواه أحمد في مسنده ، والنسائي وابن ماجة عن ثوبان ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٧٩ .

(٣) صحيح: رواه الحاكم وأبو داود عن ثوبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨٠.

لا يسأل الناس شيئًا فيعطيه الله أعز السؤل وهو الجنة ، والجزاء من جنس العمل.

فكان ثوبان يسقط سوطه وهو راكب ، وربما وقع على عاتق رجل فيأخذه فيناوله ، فلا يأخذه منه حتى ينزل هو فيأخذه . اهـ من فيض القدير .

وقال ﷺ : « ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ، وإنه من يستعف يُعفّه الله ، ومَنْ يستغن يغنه الله ، ومَنْ يتصبر يصبره الله ، وما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا ، وأوسع من الصبر » . رواه الشيخان وأحمد .

وقال رسول الله ﷺ : « من استغنى أغناه الله ، ومَنْ استعفّ أعفّه الله ، ومَنْ استكفى كفاه الله ، ومَنْ سأله وله قيمة أوقية فقد ألحف »[١] .

قال المناوي : « من استغنى بالله عمن سواه ، أغناه الله » أي: أعطاه ما يستغني به عن الناس ، ويخلق في قلبه الغنى ، فإن الغنى غنى النفس « ومن استعف » أي امتنع عن السؤال ، « أعفّه الله » بتشديد الفاء ؛ أي جازاه الله على استعفافه بصيانة وجهه ، ودفع فاقته ، « ومن استكفى » بالله ، « كفاه » الله ما أهمه ورزقه القناعة .

قال ابن الجوزي : لما كان التعفف يقتضي ستر الحال عن الخلق ، وإظهار الغنى عنهم ، كان صاحبه معاملًا لله في الباطن ، فيقع له الربح على قدر صدقه في ذلك .

وقال ابن التين : معنى قوله : « أعفه » : إما يرزقه من المال ما يستغني به عن السؤال ، وإما أن يرزقه القناعة .

وقال الحرالي : من ظن أن حاجته يسدها المال فليس برًّا ، إنما البر الذي أيقن أن حاجته إنما يسددها ربه ببره الخفيّ وجوده الوفيّ .

« ومن سأل » الناس ، « وله قيمة أوقية » من الوقاية ؛ لأن المال مخزون مصون ، أو لأنه يقي الشخص من الضرورة ، « فقد ألحف » أي سأل الناس

---

(١) صحيح : رواه أحمد والنسائي والضياء عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٩٠٣ .

إلحافًا ، تبرُّمًا بما قسم له .

مقصود الحديث الإشارة إلى أن في طلب الرزق من باب المخلوق ذلًا وعناءً ، وفي طلبه من الخالق بلوغ المنى والغنى ، قال بعض العارفين : من استغنى بالله افتقر الناس إليه .

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسهِ ... ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل مَا فوق البسيطة كافيًا ... فإذا قنعتْ فبعض شيء كافي[(١)]

٩ - نصرة المؤمنين ونصحهم

قال ﷺ : « مَنْ يَكُنْ في حاجة أخيه يكن الله في حاجته »[(٢)] .

وفي رواية : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يشتمه ، من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته ... » .

قال المناوي :

« من يكن في حاجة أخيه » أي في قضاء حاجة أخيه في الدين ، « يكن الله في حاجته » الحاجة اسم لما يفتقر إليه الإنسان ، ومعناه على ظاهره ظاهر ، وكان لتقرير الخبر ، وتأتي بمعنى صار وزائدة وتامة ، وهنا لا تصح لواحد منها .

قال الأكمل : فينبغي أن الأولى بمعنى سعى ؛ لأن السعي في الحاجة يستلزم الكون فيها والثانية بمعنى قضى .

ورد بأن الاستمرار والانقطاع إنما يفهم من القرائن لا من كان ، وهنا الغرض بيان كون الأول سببا للثاني فقط ، فإن تكرر السبب تكرر المسبب وإلا فلا ، ولم يقل : من قضى حاجته ؛ إشعارًا بأن الله هو الذي يقضيها ، وليس للعبد إلا المباشرة ، والكون في الحاجة أعم من السعي فيها[(٣)]. والجزاء من جنس العمل.

(١) فيض القدير (٦ / ٥٨) .
(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي عن ابن عمر ، وأحمد عن مسلمة بن مخلد .
(٣) فيض القدير (٦ / ٢٤٤) .

وقال ﷺ : « من ردّ عن عرض أخيه ، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة »(١) .

قال المناوي :

« من رد عن عرض أخيه » في الدين ، أي رد على من اغتابه ، وشان من آذاه وعابه ، « رد الله عن وجهه » أي ذاته ، وخصه لأن تعذيبه أنكى في الإيلام ، وأشد في الهوان ، « النار يوم القيامة » جزاءً بما فعل ؛ وذلك لأن عرض المؤمن كدمه ، فكأنه سفك دمه ، ومن عمل على صون عرضه فكأنه صان دمه ، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها . وإلا كان زيادة في رفعة درجاته في الجنة(٢) .

والجزاء من جنس العمل .

قال رسول الله ﷺ : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا ، ستره الله يوم القيامة »(٣).

قال المناوي : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا » في قبيح فعله وقوله ، فلم يفضحه بأن اطلع منه على ما يشينه في دينه أو عرضه أو ماله أو أهله ، فلم يهتكه ، ولم يكشفه بالتحدث ، ولم يرفعه الحاكم بالشرط المار ، « ستره الله يوم القيامة » أي لم يفضحه على رءوس الخلائق ، بإظهار عيوبه وذنوبه ، بل يسهل حسابه ، ويترك عقابه ؛ لأن الله حيي كريم ، وستر العورة من الحياء والكرم ففيه تخلق بخلق الله ، والله يحب التخلق بأخلاقه(٤) .

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذي عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٣٨.

(٢) فيض القدير (٦ / ١٣٥ - ١٣٦) .

(٣) رواه أحمد عن رجل ، وأحمد والحميدي عن أبي أيوب وعقبة ، وأحمد عن مسلمة ابن مخلد ، وأحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن الجارود عن أبي هريرة ، وأحمد والشيخان والترمذي عن ابن عمر ، وأحمد عن عائشة .

(٤) فيض القدير (٦ / ١٤٩) .

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ: «من نصر أخاه بظهر الغيب، نصره الله في الدنيا والآخرة»[١].

قال المناوي :

« من نصر أخاه » في الإسلام ، « بظهر الغيب » زاد البزار « وهو يستطيع نصره » ، « نصره الله في الدنيا والآخرة » جزاءً وفاقا ، ونصر المظلوم فرض كفاية على القادر إذا لم يترتب على نصره مفسدة أشد من مفسدة الترك[٢] .

قال رسول الله ﷺ : « من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا ، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وَمَنْ يَسر على مُعْسِر ، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ، ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، وَمَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهل الله له طريقًا إلى الجنّة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وَمَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »[٣] .

قال المناوي :

« من نفس » ، أي أمهل وفرّج ، من تنفيس الخناق أي إرخائه ، وقال عياض : التنفيس المد في الأجل والتأخير أو محا عنه وأبرأه من الدين المكتوب عليه والإعسار من كرب الدنيا بل هو أعظمها فجوزي من نفّس بتفريج أعظم كرب الآخرة – عنه – وهو هول الموقف وشدائده بالإراحة من ذلك ، ورفعته إلى أشرف المقامات ، وقد يكون ثواب المندوب أكمل من ثواب الواجب[٤] .

---

(١) حسن : رواه البيهقي في سننه ، والضياء عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٥٠ ، والصحيحة رقم ١٢١٧ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٣٣٣) .

(٣) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) فيض القدير (٦/٢٣٣) بتصرف .

والجزاء من جنس العمل ، وما أشرفه من حديث .

قال ﷺ: «من يسّر على معسر ، يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة»(١) .

قال المناوي :

« من يسر على معسر » مسلم أو غيره بإبراء أو هبة أو صدقة أو نظرة إلى ميسرة ، وإعانة بنحو شفاعة أو إفناء يخلصه من ضائقة ، « يسر الله عليه » مطالبه وأموره ، « في الدنيا » بتوسيع رزقه وحفظه من الشدائد ومعاونته على فعل الخيرات ، وفي « الآخرة » بتسهيل الحساب والعفو عن العقاب ونحو ذلك من وجوه الكرامة والزلفى ، ولما كان الإعسار أعظم كرب في الدنيا لم يخصَّ جزاءه بالآخرة بل عممه فيهما(٢) .

والجزاء من جنس العمل .

١٠ - الصدق

إن تصدق الله يصدقك .

قال تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة : ١١٧ - ١١٩] .

أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري ، قال : أخبرني عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد

(١) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٩٠ .

(٢) فيض القدير (٦ / ٢٤٣) .

كعب من بنيه حين عمي – قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا، واستقبل عدوّا كثيرًا ، فجلّى للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ؛يريد الديوان .

قال كعب – رضي الله عنه – : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظنّ أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر[1]، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولا أقضي شيئًا ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ غازيًا والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، وقلت : الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ من جهازي شيئًا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئًا ، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل

---

(١) أميل .

فأدركهم ، وليت أني فعلت ، ثم لم يُقدر لي ذلك ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله[1] ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك ؟ » . فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر في عطفيه .. فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت : والله يا رسول الله ، ما علمنا عليه إلا خيرًا ، فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلًا من تبوك حضرني بثي[2] ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدًا ، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لم أنج منه بشيءٍ أبدًا ، فأجمعت صدقه . وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعًا وثمانين رجـلًا ، فقبل رسول الله ﷺ منهم علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت ، فلما سلّمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب ، ثم قال : « تعال » . فجئت أمشي حتى جلست بين يديه . فقال لي : « ما خلَّفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » . فقلت : يا رسول الله ، والله لو أني جلست عند غيرك من أهل الدنيا لِرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلًا ، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخط علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال ﷺ : « أما هذا فقد صـدق ، فقم حتى يقضي الله فيك » . فقمت وبادرني

---

(١) يعني الضعفاء والمرضى ، والذين لا يجدون ما ينفقون . (٢) حزني .

رجال من بني سلمة واتبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك قد أذنبت ذنبًا قبل هذا ، لقد عجزت ألّا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ . قال : فوالله ، ما زالوا يؤنبونني حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي . ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا ما قلت ؟ وقيل لهم مثلما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال ابن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا ، لي فيهما أسوة ، فمضيت حينما ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا – أيها الثلاثة – مِنْ بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس – أو قال : تغيّروا لنا – حتى تنكرتْ لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريبًا منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا تلفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة، أنشدك الله تعالى : هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدته فنشدته فسكت . فعدتُ فنشدته ، قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتولّيت حتى تسوّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيّ[1] من أنباط الشام ممّن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتابًا من ملك غسّان ،

(١) النبط والأنباط ، والنبيط هم فلاحو العجم .

وكنت كاتبًا ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد ، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضًا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلالًا شيخ ضائع ، وليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستاذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابّ .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى[١] على جبل سلع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدًا ، وعرفت أن قد جاء الفرج ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليّ رجل فرسًا ، وسعى ساع من أسلم قِبَلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ ، فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم[٢] رسول الله ﷺ يتلقاني

---

(١) أشرف عليه . (٢) أقصد .

الناس فوجًا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب – رضي الله عنه – لا ينساها لطلحة .

قال كعب – رضي الله عنه – : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرُق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » . قلت : أمِنْ عندك يا رسول الله أم مِنْ عند الله ؟ قال : « لا ، بل مِنْ عند الله » وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن مِنْ توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله ، إنما أُنجاني الله بالصدق ، وإنّ من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت . قال : فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه[1] الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم**﴾ إلى قوله: ﴿**وكونوا مع الصادقين** ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩].

قال كعب : فوالله ، ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لِتُعْرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون**

(١) أنعم عليه .

لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٩٥ - ٩٦] .

قال كعب : وكنا خُلّفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله **﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾** وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خُلّفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه .

قال ابن كثير :

لما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب ، من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها، فسُدَّت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرّج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيرًا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : **﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾** أي : اصدقوا والزموا الصدق تكونوا مع أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ، ومخرجًا . قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »(١) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

«إن في هذه القصة لأكبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين ،وتخشع لها قلوب

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ / ١٧٠) رواه أحمد والبخاري ومسلم .

المتقين ، وكان الإمام أحمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات ، وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها . وأيّ مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع ، وقلبه أن يجف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل »(١) .

قال القشيري :

لما صدق منهم اللجاء تداركهم بالشفاء ، وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحق يكوِّرُ نهار اليسر على ليالي العسر ، ويطلع شموس المحنة على نحوس الفتنة ، ويدير فلك السعادة فيمحق تأثير طوارق النكاية ، سنة منه - تعالى - لا يُبدِّلهُا ، وعادة منه في الكرم يُجريها ولا يحوِّلها . يمطر سحائب الجود ، فيعود عودُ الحياة بعد يَبْسِه طَرِيًّا ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنس عقب ذبوله غضًّا جَنِيًّا ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كنا كَمَنْ أُلْبِسَ أكفانَه وقُرِّب النعشُ من اللَّحْدِ
فجال ماء الرُّوح في وحشهِ وردَّه الوصل إلى الورْدِ

ثم قال : استديموا في الدنيا تكونوا غدًا مع الصادقين في الجنة(٢) .

من صدق الله صدقه الله ، انظر إلى كعب بن مالك رضي الله عنه .

مع حرصه البالغ على رضا رسول الله ﷺ ، وهذا الرضا يومئذ يعز ويذل ، ويرفع ويخفض ، ويترك المسلم مرموقًا بالأنظار ، أو مهملا لا ينظر إليه إنسان ، مع هذا فإن مراقبة الله أقوى، وتقوى الله أعمق ؛ والرجاء في الله أوثق .

وكعب في لهفته ، وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التي كان يعرف ، يتلمس حركة مِنْ بين شفتي الرسول ﷺ ، ويخالسه النظر ؛ لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف .

---

(١) تفسير المنار (١١ / ٧١ - ٧٢) . (٢) لطائف الإشارات (٢ /٧٠ - ٧١) .

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقي إليه مخلوق من قومه بكلمة - ولو على سبيل الصدقة - يجيئه من قبل ملك غسّان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه، ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله، وما يزيد على أن يلقي بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبرَ على الابتلاء .

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه ؛ لتدعه فريدًا طريدًا من الأنس كله ، مخلفًا بين الأرض والسماء ، فيخجل أن يراجع رسول الله ﷺ في امرأته ؛ لأنه لا يدري كيف يكون الجواب .

هذه صفحة ، والصفحة الأخرى هي صفحة البشرى . بشرى القبول ، بشرى العودة إلى الصفّ ، بشرى التوبة من الذنب ، بشرى البعث والعودة إلى الحياة ، بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة ، وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلًا لا ينساه الطريد الذي ردّ إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو في يوم كما قال عنه رسول الله ﷺ : « أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك » قالها ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور ، كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردّهم مكرمين إلى جماعته[1] .

بعد الكربة واليأس والحرج والضيق يجيء الفرج .

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبه عامة من كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي[1] .

يقول ابن القيم :

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها ، وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا ، فتاب العبد ، فتاب الله عليه ثانيًا قبولًا وإنابة .

---

(١) الظلال (٣ / ١٧٣١ - ١٧٣٢) .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته ، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته ، فإن من ثواب الهدى الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة الضلالة بعدها . قال الله تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ فهداهم أولًا فاهتدوا ، فزادهم هدًى ثانيًا .

والتوبة لها مبدأ ومنتهى . فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذي نصبه لعباده، موصلًا إلى رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى: ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل** ﴾ .

ونهايتها : الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلى جنته ، فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة رجع إليه في المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا** ﴾ [الفرقان : ٧١] .

قال البغوي وغيره : ﴿ **يتوب إلى الله متابًا** ﴾ يعود إليه بعد الموت ، متابًا حسنًا يفضل على غيره، فالتوبة الأولى، وهي قوله: ﴿**ومن تاب**﴾ رجوع عن الشرك . والثانية : رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة(١) .

والجزاء من جنس العمل .

١١ - المراقبة

عن عبد الله بن دينار ، قال : خرجت مع ابن عمر إلى مكة ، فعرّسنا ، فانحدر علينا راعٍ من جبل ، فقال له ابن عمر : أراع ؟ قال : نعم ، قال : بعني شاة من الغنم. قال إني مملوك، قال: قل لسيدك: أكلها الذئب. قال: فأين الله عز وجل ! قال ابن عمر: فأين الله ! ثم بكى، ثم اشتراه بعد، فأعتقه .

وفي رواية ابن أبي روّاد ، عن نافع : فأعتقه ، واشترى له الغنم(٢) .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٣١٣ - ٣١٤) .

(٢) ذكره ابن الأثير في أسد الغابة (٣/٣٤١)، وهو في المجمع (٩/٣٤٧) ونسبه للطبراني ، وقال : ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن الحارث الحاطبي ، وهو ثقة انظر سير أعلام النبلاء (٣/٢١٦).

يعف عن شاة واحدة ، فتكون له كل الشّياه . والجزاء من جنس العمل .

١٢ - العفو

مرّت أحاديث العفو سابقا وفيها : « ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزًّا » .

وفيها : « ولا عفا رجل عن مظلمة ظلمها إلا زاده الله بها عزًّا » .

وفيها : « وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » .

قال ابن القيم :

للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه .

ثم ذكر منها المشهد الثالث : مشهد العفو والصفح والحلم . فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزّته لم يعدل عنه إلا يعشى في بصيرته . فإنه « ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » كما صحَّ ذلك عن النبي ﷺ ، وعلم بالتجربة والوجود ، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذلّ .

هذا، وفي الصفح والعفو والحلم؛ من الحلاوة، والطمأنينة، والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام:ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام .

ويهونه عليك : علمك بأن الجزاء من جنس العمل . فإن كان هذا عملك في إساءة المخلوق إليك عفوت عنه ، وأحسنت إليه ، مع حاجتك وضعفك وفقرك وذُلِّك ، فهكذا يفعل المحسن القادر العزيز الغني بك في إساءتك ، يقابلها بما قابلت به إساءة عبده إليك ، فهذا لابد منه ، وشاهده في السنة من وجوه كثيرة لمن تأملها[١] .

عن أبي هريرة أن رجلًا شتم أبا بكر ، والنبي ﷺ جالس ، فجعل النبي

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣١٨ - ٣٢٠) .

ﷺ يعجب ويتبسّم ، فلما أكثر رد عليه بعض قوله ، فغضب النبي ﷺ ، وقام ، فلحقه أبو بكر ، فقال : يا رسول الله ، كان يشتمني وأنت جالس ، فلما رددتُ عليه بعض قوله غضبت وقمت . قال : « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله ، وقع الشيطان ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان » . ثم قال : « يا أبا بكر ، ثلاث كلهن حق ، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عز وجل ، إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطيَّة يريد بها صلة ، إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلّا زاده الله عز وجل بها قلّة »(١) .

١٣ - الوفاء

عن ميمونة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أخذ دَينا وهو يريد أن يؤديه ، أعانه الله »(٢) .

وقال ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدَّى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »(٣) .

وقال ﷺ : « ما من أحد يدّان دينا يعلم الله منه أنه يريد قضاءه ، إلا أداه الله عنه في الدنيا »(٤) .

وقال ﷺ: «من ادان دينا ينوي قضاءه، أدّاه الله عنه يوم القيامة»(٥) .

---

(١) رواه أحمد ، وابن ماجة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ؛ وحسّن سنده شعيب الأرناؤط ، انظر تحقيق سير أعلام النبلاء (١٧ / ٢٠٢) .

(٢) صحيح : رواه النسائي عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٥٧ .

(٣) رواه البخاري وأحمد ، وابن ماجة عن أبي هريرة .

(٤) صحيح : رواه أحمد والنسائي ، وابن حبان عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٥٥٣ .

(٥) صحيح رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ميمونة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٦٢ .

١٤ - الجود والكرم

قال ﷺ : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرْيٍ كساه الله تعالى من خُضْر الجنة ، وأَيُّمَا مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله تعالى يوم القيامة من ثمار الجنة ، وأيّما مسلم سقى مسلمًا على ظمإٍ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم »(١) .

قال المناوي : « أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على حالة عري كساه الله تعالى من خضر الجنة » أي : من ثيابها الخضر .

« أيما مسلم سقى مسلما على ظمإ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق » اسم من أسماء « المختوم » أي يسقيه من خمر الجنة الذي ختم عليه بمسك . قال التوربشتي : الرحيق الشراب الخالص الذى لا غش فيه ، والمختوم الذي يختم من أوانيها ، وهو عبارة عن نفاستها وكرامتها ، وهذا إشارة إلى أن الجزاء من جنس العمل ، والنصوص فيه كثيرة ، والمراد أنه يختص بنوع من ذلك أعلى ، وإلّا فكلّ من دخل الجنة كساه الله من ثيابها ، وأطعمه وسقاه من ثمارها وشرابها ، ويظهر أن المراد المسلم المعصوم ويحتمل إلحاق الذمي العاري الجائع به(٢) .

وفي المكارم وجزائها أحاديث أخر :

قال ﷺ : « منْ يتوكل لي ما بين لحيَيْه ، وما بين رجْلَيْه ، أتوكل له بالجنة »(٣) .

قال ﷺ : « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومَنْ يتحرّ الخير

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري ، وقال المنذري : رواه أبو داود والترمذي من رواية أبي خالد بن يزيد الدالاني ، وحديثه حسن . اهـ .
قال المناوي : ولينه ابن عدي . وضعف الحديث الشيخ الألباني .

(٢) فيض القدير (٣ / ١٤٢ - ١٤٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد ، والترمذي ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرك عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٤٨١ .

يُعطهْ ، ومَنْ يتوقَّ الشر يُوقَّهْ »[1] .

وقال ﷺ : « من استنَّ خيرًا ، فاستُنَّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أجور من استنّ به ، ولا ينتقص من أجورهم شيئًا ، ومن استنّ سنة سيئة فاستن به ، فعليه وزره كاملًا ، ومِنْ أوزار الذين استنوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »[2] .

وقال ﷺ : « من سَنَّ سنة حسنة عمل بها بعده ، كان له أجره ، ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ سنة سيئة فعمل بها ، كان عليه وزرها ومثل أوزارهم ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[3] .

وأخيرًا .. أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة .

عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[4] .

قال المناوي :

إنّ ما يفعله العبد من خير وشر في هذه الدار له نتائج تظهر في دار البقاء ؛

---

(١) حسن : رواه الدارقطني في الأفراد ، والخطيب في تاريخ بغداد عن أبي هريرة ، والخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٣٢٤ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٢) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٥٨٩٠ ، وفي تخريج الترغيب (١ / ٤٨) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن أبي جحيفة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٨٢ .

(٤) رواه الطبراني في الكبير عن سلمان ، وعن قبيصة بن برمة ، وعن ابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب في تاريخ بغداد عن علي ، وأبي الدرداء ،=

لأنها محل الجزاء ، وجزاء كل إنسان بحسب عمله ، وكل معروف أو منكر يجازى عليه من جنسه ، وكل إنسان يحشر على ما كان عليه في الدنيا . اهـ[1].

* * *

= وأشار السيوطي إلى ضعفه في الجامع ، وعن ابن عباس، وقبيصة بن بُرْمة عند البخاري في الأدب المفرد .

قال المناوي في فيض القدير (٢ / ٤٤٠) :

قال ابن الجوزي : حديث لا يصح . قال أحمد:تركت حديث هشام بن لاحق - أي أحد رجاله - تركه أحمد وقوّاه النسائي ، وبقية رجاله ثقات . وقبيصة قال أبو حاتم : لا يصح له صحبة ، قال الذهبي : يعني حديثه مرسل انتهى . وفي التقريب : مختلف في صحبته ، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين .

قال الهيثمي : وفيه علي بن أبي هاشم . وفي حديث ابن عباس عبد الله بن هارون القروي وهو ضعيف ذكره الهيثمي ، وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، والخطيب عن علي ، قال ابن الجوزي : لا يصح إذ فيه محمد بن الحسين البغدادي ، كان يسمي نفسه لاحقًا ، وقد وضع على رسول الله ﷺ ما لا يحصى.ذكره الخطيب ، وعن أبي الدرداء ، وفيه هند أم ابن قتيبة ، قال ابن الجوزي : مجهول اهـ .

قال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تعليقه على سير أعلام النبلاء (١٧/٥٩٥) : وفي الباب عن سلمان الفارسي عند البخاري في الأدب المفرد ، والطبراني ، وعن أبي موسى الأشعري عند الطبراني في الصغير (١/٧٣،٧٤) ، وعن ابن عمر عند البزار ، فالحديث صحيح بهذه الشواهد .

(١) فيض القدير للمناوي (٢ / ٤٤٠) .